الليلة نمشي بين الماء والرمل

قصة بقلم
محمود الريماوي

١ —

قلت : يا رب ، هل ان كل ما يتمنى المرء لا يدركه ، في هذه الفانية الى الابد ؟

بل اجعل يا رب ، لابنك الطفل ، الآن وغدا ، وفي سن الكبر وأرذل العمر ، مركبة طويلة . وبفيض قدرتك ، لا تفسح في ذاكرته مكانا لغير الماء ..

يا رب الابد . يا رب كل عدم .

٢ —

— ها اننا وصلنا ..
— المشي على البحر جميل جدا .
— تجيء كثيرا الى هنا ؟
— نذهب دائما الى الحديقة .
— الحديقة قريبة من البحر .
— لكنا نبقى هناك دائما .

كانت عيناه تتوامضان ، بالفضول والبهجة ، وبدا وجهه صبوحا وهو يدير طرفه الى الماء .

كانت راحته الطرية الصغيرة ، تملأ راحتي بالدفء . والصمت والكلام بيننا يتوالفان .

— هل تعرف ان تعوم ؟
— لا أعرف . هل تعرف انت ؟
— لم أتعلم بعد . ساضع شيئا على وجهي عندما اغوص .
— تغوص .. لماذا .. الماء تحت
— انني لا ابقى هناك ، اغوص ثم اخرج .
— الماء تحت البحر مظلم .
— ليس مظلما عندما اضع ذلك الشيء على وجهي .
— وتحت الماء صخور وأسماك كبيرة ، هل تعرف ؟
— رأيتهم يغوصون ويخرجون .
— اين رأيتهم ؟..
— الم ترهم ؟
— لم ارهم .
— يظهرون في برنامج التلفزيون .
— انا لا أرى التلفزيون .
— الم تر المركبة الطويلة ؟
— لم ارها .
— مركبة طويلة وسريعة جدا ، تشق الماء نصفين .
— وتحب أن تركبها ؟
— ليست مثل هذه .

قال ذلك وهو يتجه بعينيه الى نهاية المنحدر ، حيث كان رجلان يشتغلان على تهيئة قارب خشبي .

— المركبة تغرق عندما تكون سريعة جدا .
— عندما تغرق يقفز الكابتن ويعوم .

افلتت يده مني تلك اللحظة ، فالتقطتها وكان يجب ان ادعها قليلا ، وضغطت عليها من جديد .

— اذا سألتك اين تذهب المركبة ، هل تعرف ؟
— ترجع الى الشاطىء .
— وقبل ان ترجع ؟
— تظل في البحر ، لانه بعيد جدا .
— وتظل انت فيها ؟
— عندما انعس انام .
— السائق لا ينام .
— عندما ينعس ينام وتمشي المركبة .
— كيف تمشي والسائق نائم ؟
— انها تمشي وحدها ، رأيتها في التلفزيون .
— واذا نمت من يوقظك في الصباح ؟
— .. صوت الماء قوي جدا .

٣ —

لم يكن صوت الماء عنيفا ، الى جانبنا . كان ينسرح خفيفا رائقا ، ذات امسية صيفية مترعة بالنداوة ، وعلى سطحه تبرق اضواء الشارع ، النحاسية الباهرة .

هو نهر ، لكن الطفل يقول عنه بحر . ومن قرارة النهر العميق ، كانت تنبعث دقات وانية ، تنتظم في الصمت الذي انتشر علينا . صمت شامل متسع ، يلعب به الهواء الهفهاف . لكنه صمت ثابت نظيف ، كانما يكتفي بنفسه . بينما اقدامنا توقع على العشب ، النابض بالبلل والطراوة الخافتة .

كنت قد آنست في نفسي ، رغبة في المشي اكثر ، الا ان الطفل شعر ببرودة . وعرفت اذ بدأ صدره ينهج ببطء ، ان بعض التعب

ادركه . فمسحت على شعره ، وخافقي مفعم بالفة وحنان نحوه . وقلت لنفسي : لنتوقف بعض الوقت . واقتعدنا الارض الخضراء . جلس على الارض العشبة لصقي ، فاحطته بذراعي . كانت السماء فوقنا صافية شاسعة ، وامامنا النهر عريض هائل . وشعرت بدفئه القريب مني ، يغمرني ، شديد العذوبة ، وكاني في حضرة حلم . بينما كان النهر هادئا .. هادئا حتى الجبروت ، وكاني اذا ما امعنت النظر فيه ، سينزع مني والى الابد ، الماضي الذي عشت فيه .

سالت الطفل : هل ترجع للبيت ؟ فتمتم وهو مطرق الراس : ليس الان . فلم نرجع ؟

وكان البيت بعيدا عن النهر ، يقبع مكافحا وسط بيوت متلاصقة منتظمة ، وشديدة التشابه . بيوت عديدة اقاموها في ظاهر المدينة ، بحيث تفتح نوافذها ، اما على البيوت المجاورة ، او الى الجهة الاخرى على ارض فسيحة : متربة وخلاء . ولم يكن يحد البيوت واحدها عن الآخر ، سور او باب خارجي او حديقة او بضع حديقة . وكان على الطفل ان يقضي الوقت (الوقت الضيق الذي بين المدرسة .. والمدرسة) ، بين الجدار الواطيء المائل وجدار البناية العالي .. على السلم اللولبي ، يلهو مع اولاد الجيران .

ثم القى براسه على حضني ، وعرفت انه سيغفو ، ففقا . وثنى ساقيه الى صدره ، متخذا وضع الجنين ، وكانما ينسحب من خطر مقبل . وبدا في ذلك ، كتلة رقيقة ضعيفة مستسلمة . وراقبت وجهه فكان متشحا بالاسى ، كانه يحمل في ضميره عبئا ما . فقلت لنفسي : لاكن رقيبا على نفسي ، ولا اترك قيادها ، حتى لا اجدني بغتة ازيح راسه عني ، وامضي بعيدا عن النهر العميق ، الى قلب المدينة الجياش .

واذا ما اذنت الشمس بالغروب ، اغمضت عيني للحظات ، واغلقت المجلة باليد الاخرى، وقلت: يا رب ، خذ بيد طفلك . خذ بيد احلامه الطاهرة ، واشواقه الاخرى البيضاء . ودعه ينهض ويكبر ويصبح رجلا . ولا تنسه يا رب ، صغيرا على بابك الواسع الكبير ..

واذا ما اطل القارب المضيء ، يداعب صدر الماء الاخضر ، ورايت الرجلين يجدفان بيسر ودربة ، قلت : يا رب ، سدد خطى ابنك صوب الميناء القريب . واجعل له من لدنك وبدالتك ، مركبة طويلة . يسوقها الطفل بسرعة شديدة جدا ، حتى تثير قلبه الضجة المائية . مركبة يسوقها الطفل المقدام في كل وقت . في ضوء نجمة الصباح الاولى ، او في غبش الظهيرة الفتان ، او في هداة القمر الساحر .

وعدت من جديد ، اتملى النهر في وحدتي الليلية . كان النهر رخيا ، لكنه عميق وله دوي سري ، كانه يجمع بين الصوت والصدى، في اللحظة الواحدة . وقلت لنفسي وقد بدا يغشاني خوف : اني اذا ما امعنت النظر ، في صفحة الماء وما تحتها ، فان النهر لا بد يسلبني كل الماضي الذي لي . ويجعلني اقف عاريا مكشوفا ، امام طفولة بعيدة مكسورة . طفولة شائخة ايضا ، يمر الزمن من بين اقدامها ويتبدد ، وهي واقفة ابدا . وقلت ...

ـ ٤ ـ

فيما كنت احاول ان ادفع عني ، الشعور بالبعد والهجران ، احنيت راسي . لم نكن ، انا والطفل ، بعيدين عن الشارع الرئيسي حيث تحتشد السابلة ، لكننا وحدنا في ذلك المكان .

وبينما كان الطفل سادرا في نومه ، سمعت على البعد صوتا يقترب مني ، ترافقه جلبة ذات ايقاع رتيب . ثم لاح جسم ضئيل ، وشرع يدنو مني لاهثا . حتى اذا اصبح على مرمى نظري القريب ، رايت صبيا ناحلا خائفا ملتاعا . فقلت لنفسي : ثمة من اضاعه في الطريق ، فجاء يلجا الي . وقف يحدق بي ، بدل ان احدق انا فيه . فسالته على نية ان اثير فيه الجراة على البوح « هل تفتش عن احد ؟ » وكانه لم يسمع ، فلم اعرف كيف كان وقع كلامي عليه ، لكنه بدا وكانه نادم على مجيئه . ثم نظر الى الطفل النائم ، وانعم النظر ، كما لو انه يحاول ان يتذكر شخصا يعرفه . فتملكني انشداه ، ولم اعرف كيف افكر ، وقلت لنفسي : من جمع الاطفال بين يدي ، هذه الساعة ؟ فاجاب : « الناس الذين عرفتهم ، لم اعرف فيهم اهلي » . وسالني ان كنا لوحدنا ، فاجبته اننا راجعان الى البيت ، وانني سارجع مع الطفل الى بيته . سمع ذلك واستغرق ، وغامت عيناه « لا اعرف ولا اتذكر مكانا اذهب اليه » . قال ذلك بصوت خفيض يتقاسمه اليأس والشجن ، دون ان ينظر ردا مني ، وكانه يخاطب بدلا مني ، كائنا مجهولا . قلت : « هل اعطيك شيئا ؟ » فلم يختلج وجهه « لا تعطني شيئا » ، ولاذ بالصمت . قلت : « هل انك تعيش وحيدا ؟ » فلم يوقظه سؤالي، لكنه اجاب « لم اعش يوما الا وحيدا » . وراودتني رغبة طموح ، في التعرف اليه اكثر فقلت « اذن فانك تشتغل » . فصوب عينيه علي بدقة ، ومضت هنيهات قبل ان يقول « لكنك تراني صغيرا .. » .

(كنت قد التفت لبرهة ، الى الطفل النائم على حضني . كان قد ذهب بعيدا في قرارة النوم ، وبدا وجهه يشف عن مسرة غامضة . فقلت : يا رب . لتكن له باسم مشيئتك ، مركبة طويلة ، حتى يشق البحر بلهفة طفلية بهية . بثقة الامير ، والعاشق المغرور . وبكل ما يملأ قلب الكون ، من بركة وسعد وشكران) .

ثم نظر الي الطفل النائم ، واخذ ينقل عينيه ، بيني وبين الطفل ، حتى قال : « انه شبيهك » فقلت : « بعض الشيء . ربما » . ثم تمطى وتثاءب ، واطلق صوتا لم اتبينه ، واقعى قربي . « انك تشعر بالتعب » . فقال : « لانني امشي » . وتوقعت ان يسالني ان كان الطفل النائم قد مشى من وقت ، فقلت : « انه نوم التعب » . وبعد ذلك ، فجاة ، خبط الارض بكعب حذائه المتاكل وهو يقول : « هل امسكت واتكلم انا » . وكان وقت قد مضى ، وانا متوقف عن الكلام ، فاشتعلت عيناه وتبسم . لكن لم يلبث ان اكتاب ، وانكسرت اهدابه . « بعد ان صار عمري سنتين فقدت الوالدين . ولذلك لا اعرفهما ، وصعب ان اتذكرهما . ارى في الشارع رجلا فافكر انه ابي ، والمراة امي . واذا اقتربت يبتعدون قبل ان اسال . ولا ازال اخطىء وافعل ، لكني في آخر لحظة ازوغ ، ولا اسال . واكيد ، ومهما حصل ، ساتوقف عن هذه الطريقة » .

« كنت قد التحقت بمدرسة داخلية ، وبعد سنة فيها ، هربت وتخلصت منها ، لانها ضغط . وبدل ان اتعلم القراءة والكتابة ، او اتعلم صنعة ، تعلمت ان اظل ساكتا . وقد اعتدت من ذلك اليوم ، ان اعيش في الجوع والتشريد . والآن لا اعرف احدا . وحين ينتهي النهار ، لا اعرف ماذا افعل . فمن الممكن ان يفعل الواحد اي شيء في النهار ، اما في الليل فانها مشكلة . وكثيرا ، دائما ، اتمنى ان ابكي . ولا ابكي ، لا اقدر .. » .

ولم اقدر ان اصدقه ، ولم اتكلم . بقيت ساهما لابثا في الصمت، لاجل ان يتكلم هو . وتوقعت ان يستيقظ الطفل على الصوت ، لكنه لحسن الحظ كان منصرفا الى النوم .

« اقضي الوقت في التفتيش عن رجال ونساء ، متاخرين في العمر . فلا بد انهما الآن كذلك ، مثل الاجداد . وفي الشوق لان العب . هل تفهم ؟ فانا احب الاطفال كثيرا جدا ، وكان كل واحد فيهم ، شقيقي وصديقي ، لكنهم في البيوت او المدارس او يخرجون مع اهلهم » .

توقف قليلا ، ليرمقني بنظرة طويلة ، احببت ان افهم منها رجاءه : ان افهم ولا اتكلم .

« لماذا مثلا لا يفتشون عني هم . هل جاؤوا بي ليطردوني ويفقدوني ؟ لقد صرت اخاف ان اسال احدا » .

كانت أنفاسي قد ضاقت ، وغالبتدموعي رغم ثقتي انها لن تخرج. كنت قد دخلت في حالة سكون ، شبيهة بجمود حجر يقف جنبي وحيدا . وصرت أنقل نظري بين الصبي الوافد الغريب ، والحجر الواقف القديم ، فاكتشفت ان لهما ملمسا واحدا . ملمس الكائن المغلق ، تحكمه دائرة ضيقة واحدة ، فيدور يدور ولا يخرج من نفسه .

« لم ألعب مع طفل في المدرسة . كأننا كنا نخاف من بعضنا ، لا أعرف كيف .. فهل انتهى وقت اللعب قبل ان اكبر ؟.. اخاف قبل ان اصبح رجلا ، ان يقتلني أحد بالخطأ ، ان يقتلني رجل بالخطأ. انت لن تقتلني ولا اخاف منك » .

لم أصدقه . وقلت لنفسي : انه يتمنع بذكاء لا يليق الا برجل . ولم أستطع ان اخفي ذلك ، فقلت « من علمك الكلام ، انك تتحدث مثل رجل ؟ » . فانقبض وأشاح بوجهه « لكني ما زلت صغيرا كما ترى » . ولم اصدقه . فقلت لنفسي : انه يخيفني ، وأريد الخلاص منه . وبدا لي الامر شائكا ، فقلت وقد افسد الحزن قلبي : « ما الذي جاء بك الينا ؟ » فسمعني وأخذ يطلق اصواتا عالية متشنجة ، ويضرب بيديه على أعلى ساقيه « انتما جئتما قبلي . اني اجيء كل يوم » . عند ذلك انسحب ودفن راسه بين راحتيه . لقد اصيب بعناء شديد ، ولقد تأخرنا في العودة . واتجه بعينيه الىمنحدر مجاور مظلم. منحدر مشجر زلق مظلم . ثم سكنت عيناه ، وانطفأ اختلاج وجهه ونهض . فصدرت عنه جلبة رتيبة ، تخيلت أني قد عهدتها من زمن سحيق . وبدات صورته تتراجع وتتقطع ، وتختلط بالعتمة ، تحف بها أصداء لها صرير مخنوق . ولما أدرت وجهي لاتبين اخر ما يبقى منه ، شهقت بحرقة . كان عناء شديدا قد ضرب راسي ، بصداع نصفي حاد . وقد تحللت اعضائي ، كمن يخرج من تجربة جسدية مضنية ناقصة . وراودتني الرغبة اللهيفة ـ بدل الحركة الصعبة غير المواتية ـ في نوم عميق .

ه ـ

استيقظ الطفل من نومه ذاهلا ، ليبادرني : « لقد أخفتني . هل نحن هنا ؟ » . ولم يكن النطق منيسرا ، لان حنجرتي مبحوحة ، بسبب الجفاف الشديد في فمي . كانت الاشياء حولنا ، رغم الليل ، تتخذ وضوحا مقيما صارما ، ومبتورا عني . كانت الاشياء حولي في الليل الاسود ، تتخذ وضوحا مفرغا ساكنا لا يتنفس ، لكنه شديد الهشاشة والفراغة . فقلت لنفسي : هذه ليست ليلتي . لان وضوح الاشياء حولي ، كان يثقب كل صمت ، ويصفع اية نأمة . وقال الطفل وهو يفرك اجفانه ، ثم يطوح بذراعيه في الهواء « النوم في المركبة اجمل الف مرة » . لو لم يكن صحو الاشياء حولي ، عاريا وشجيا ، ويحيط بالذاكرة حتى يسطو على ما فيها :

استدرت تاركا النهر وراء ظهري ، ففعل الطفل مثلي ، وقد سلمني يده ، وهو ينوء بعبء يجلل وجهه بالسكينة . وبدأت أحث الخطى ، وأتعثر .. لاني كنت بين وقت وآخر اغمض عيني ، لاضغط على ذاكرتي ، حتى امنع الصور الدائرية الطافية . حتى امنعها لآخر مرة ، وابددها واسوّيها . بينما الطفل قد استكان ، واقدامه الصغيرة تنهب طريق الرجوع ، الى أفق فسيح مترب . ولم استطع الكلام مع الطفل ، ولم اعرف كيف ابدأ الحديث مع نفسي .. فضاق قلبي ، حتى تولاني الغيظ العظيم ، فقلت : يا ايها الرب العظيم ، ما دام لا ماء ولا طوفان هناك ، لا فيض ولا غرق هناك ، فاجعلها رملا خالصا . وبغامر قدرتك ، لا تفسح في ذاكرتي مكانا لغير الرمل ..

القاهرة محمود الريماوي

دار الآداب تقدم

يوسف شرورو

الحزن يموت أيضا

رواية

مأساة الانسان الفلسطيني في الوطن العربي ...

صدرت حديثا ٦٠٠ ق. ل.